الفصل الرابع

بعث أسامة

لم تكن نذر الانتقاض فى بلاد العرب لتخفى على أبى بكر وأصحابه من المهاجرين والأنصار بالمدينة . وكيف تخفى عليهم وقد كان ما شجر بينهم فى سقيفة بنى ساعدة جديراً بأن ينبههم إلى خطرها ! ! أفيُلقى خليفة رسول الله كل باله إليها ، ويعدل عن سياسة رسول الله فى شأنها ؟ أم تراه يجرى على خُطة الرسول فى تأمين التخوم بين العرب والروم ، تاركا أمر هذه الفتنة الداخلية إلى تطور الحوادث ؟

أول أمر أصدره الخليفة الأول

لقد كان أوّل أمر أصدره بعد أن تمّتْ له البيعة بالخلافة أن قال : « لِيُتِمَّ بَعْثُ أُسامة » .

وأسامة هو قائد الجيش الذى أمر النبى بتجهيزه من جِلّة المسلمين مهاجريهم والأنصار لغزو الروم ، بعد الذى كان بينهم و بين المسلمين فى مُؤتة وفى تَبُوك . ذلك أنه ، عليه السلام ، كان يخشى دائماً أن يدهمَ الروم المسلمين ، متأثرين بما بين الدين الناشئ ودينهم المسيحى من خلاف ، متأثرين أكثر من ذلك بتحريض اليهود الذين نزحوا إلى فلسطين بعد أن أجلاهم النبى عن المدينة وعن تيماء وفدك وعن أكثر المواطن التى كانوا يقيمون بها . ولعل ما حدث بمؤتة وتبوك جعله يضاعف العناية بحماية التخوم العربية الرومية . فقد سار جيش المسلمين إلى مؤتة فاستشهد من قوّاده زيد بن حارثة وجعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة ، ثم داور خالد ابن الوليد بالجيش حتى عاد به إلى المدينة سليما وإن لم ينتصر . وقد سار عليه السلام على رأس المسلمين إلى تبوك ، فكانت مسيرته نذيراً حمل خصومه على التراجع إلى ما وراء

حـدودهم دون قتـال . لا عجب وقد أثارت هاتان الغزوتان الثارات بين المسلمين والروم أن يجهِّز النبيّ جيش أسامة بن زيد بن حارثة ، وأن يكون تجهيز هذا الجيش بعض سياسته فى تأمين تخوم شبه الجزيرة من الروم ذوى البأس فى ذلك العهد .

وصية رسول الله إلى أسامة بن زيد

وكان أسامة حَدَثاً لمّا يبلغ العشرين . وإنما ولاّه رسول الله على الجيش ليجعل له من فخار النصر ما يجزى به استشهاد أبيـه بمؤتة ، وما يعوّد الشباب الاضطلاع بجسام التَّبِعات . ولقـد أمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والدّاروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعـداء الله وأعدائه فى عمـاية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن يُحرقهم بالنار ، وأن يُتم ذلك دِرَاكاً حتى لا تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فإذا تم له النصر فليسرع بالعودة غانماً مظفَّراً .

حب النبي لأسامة ابن زيد

تذمّر كثيرون منـذ اليوم الأول من تعيين حَدَثٍ كأسامة على رأس جيش يضم جِـلّة المهاجرين والأنصار وتحـدّثوا فى ذلك . صحيح أن أسامة كان موضع عطف النبي منذ طفولته ، وأنه لُقِّب لذلك « حِبَّ النبي وابن حِبِّـه » . ولقد بلغ من إعزاز النبي إياه أن أردفه وراءه عنـد ذهابه إلى مكة فى العام الثامن للهجرة وأدخله معه الـكعبة . وصحيح أن أسامة كان الشجاعة والإقدام منذ نشأته ، حتى لقد انضم إلى جيش المسلمين فى طريقهم إلى أُحد ، وإنما أعيد إلى المدينة قبل الموقعة لصغر سنه . ثم إنه أبلى من بعدُ فى حُنَيْنٍ أحسن البلاء وثبت فيها ثبات الأبطال الصناديد . لـكن المتذمّرين كانوا يرون ذلك شيئاً ، وتَولّى إمارة جيش فيه أبو بكر وعمر وكبار المسلمين شيئاً آخر . ولقد بلغ تذمُّرهم النبي وهو فى مرضه الأخير ، وجيش أسامة مقيم بالجُرْف يتأهّب للمسير ، فأمر نساءه فأراقوا عليه سبع قِرَبٍ من ماء حتى تنزل عنـه الحمّى ، ثم خرج إلى المسجد وقال بعد أن حمِـد الله وصلّى على أصحاب أُحد : « أيها الناس ، أنفِذوا بَعْثَ أُسامة . فلعمرى لئن قلتم فى إمارته لقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله . وإنه لخليق للإمارة وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

تذمر كثيرين لتوليتـه إمارة الجيش

ولما اشتد المرض بالرسول لم يتحرّك جيش أسامة من الجُرْف . رُوى عن أسامة أنه قال : « لما ثقل رسول الله صلى الله عليه وسلم هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلت على رسول الله وقد أُصمِتَ فلا يتكلم ، فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ ، فأعرف أنه يدعو لى » . وفى ساعة الصحو الذى سبق وفاة الرسول صبح يوم الوفاة استأذنه أسامة فى السير بالجيش فأذن له . لكن حدوث الوفاة بعد سويعات ردَّ أسامة والجيش إلى المدينة كرّة أخرى ، ثم كان أسامة مع أهل البيت الذين تولّوا جهاز الدفن ، فكان هو وشُقْران مولى النبىّ يصبّان الماء على جثمانه وعلىٌّ يغسله وعليه قميصه .

تصميم أبى بكر على بعث أسامة

فلما أمر أبو بكر بإنفاذ بعث أسامة بعد أن تمّت بيعته عاد المسلمون إلى تذمُّرهم وأخذوا يلتمسون الوسيلة للخلاص من موقف لم يرضَوا عنه . ورأى بعضهم ما كان من خلاف بين المهاجرين والأنصار على الخلافة ، وما ترامى إلى المدينة من أنباء العرب واليهود والنصارى وتحفُّزهم بعد موت النبى للوثبة بالمسلمين وبدينهم ، فقالوا يوجّهون الكلام إلى أبى بكر : « إن هؤلاء جُلّ المسلمين ، والعرب على ما ترى قد انتقضت بك ، فليس ينبغى أن تفرّق عنك جماعة المسلمين » . قال أبو بكر : « والذى نفس أبى بكر بيده ، لو ظننت أن السباع تَخْطَفُنى لأنفذت بعث أسامة كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولو لم يبق فى القُرَى غيرى لأنفذته » .

وقيل إن أسامة لمّا رأى ما عليه الناس طلب إلى عمر بن الخطاب أن يرجع إلى أبى بكر فيستأذنه فى أن يعود بالجيش ليكون عونه على المشركين فلا يَتَخَطَّفون المسلمين . وقالت الأنصار لعمر : « فإن أبى إلا أن نمضى ، فأبلغه عنّا واطلب إليه أن يولّى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة » . وأبلغ ابن الخطاب أبا بكر رسالة أسامة ، فلم يلبث حين سمعها أن ثار ثائره وقال : « لو خَطِفَتْنى الكلاب والذئاب لم

أردّ قضاءً قضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم » . أمّا رسالة الأنصار أن يولى عليهم رجلا أقدم سنًّا من أسامة فقد وثب لها أبو بكر وكان جالساً فأخذ بلحية عمر وقال مغضَباً : « ثَكِلَتْكَ أمُّك وعدمتك يابن الخطّاب ! استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم وتأمرنى أن أنزعه ! » . ورجع عمر إلى الناس فسألوه عما صنع فقال : « امضوا ، ثكلتكم أمهاتكم ما لقيت فى سبيلكم من خليفة رسول الله » .

« لا أدع أمراً يصنعه رسول الله إلا صنعته »

هذا الحديث فى رواياته المختلفة يصوّر لنا سياسة أبى بكر أوّل ما تولّى الخلافة . وهذه السياسة تتلخص فى قوله لفاطمة ابنة رسول الله حين طالبته بميراثها عن أبيها : « إنى والله ما أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته » . وهو قد أعلنها إلى الناس ساعة قال لهم : « لِيُتِمَّ بَعْثُ أسامة . ألاَ لا يَبْقَيَنّ بالمدينة أحدٌ من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجُرْف » . فقد وقف بينهم خطيباً بعد أن ردّ المعترضين منهم وقال : « يأيها الناس ، إنما أنا مثلكم ، وإنى لا أدرى لعلكم ستكلّفونى ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُطيق . إن الله اصطفى محمداً على العالمين وعصمه من الآفات . وإنما أنا مُتَّبِعٌ ولستُ بمبتدع . فإن استقمتُ فتابعونى ، وإن زُغتُ فقوّمونى . وإن رسول الله قُبِض وليس أحدٌ من هذه الأمة يطلبه بمَظْلَمَةٍ ضَرْبة سوط فما دونها . ألاَ وإنّ لى شيطاناً يعترينى ، فإذا أتانى فاجتنبونى .. » ثم حثهم على العمل الصالح قبل أن يجىء أجلُهم ، وأن يعتبروا بالآباء والأبناء والإخوان ، وألاّ يغبطوا الأحياء إلا بما يغبطون به الأموات .

إنما أنا مُتَّبِعٌ ولست بمبتدع ، ولن أدع أمراً رأيت رسول الله يصنعه إلا صنعته ؛ هذه سياسة الخليفة الأوّل . ولأبى بكر أكثر من كل إنسان أن يتخذها سياسته . فهو قد صحب رسول الله على ما رأيت منذ بعثه إلى أن اختاره الله إليه . ثم إنه كان يؤمن بالله ورسوله إيماناً لا يكبو ولا يتزعزع ، وكان لاتصاله القلبى والروحى برسول الله يعرف من أمره ما لا يعرفه غيره . وهو وحده الذى قال فيه

رسول الله قبل يومين اثنين من وفاته : « إنى لا أعلم أحداً كان أفضل فى الصحبة عندى يداً منه . و إنى لو كنت متخذاً من العباد خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلا . ولكن صحبة و إخاء و إيمان حتى يجمع الله بيننا عنده » . وأنت قد رأيت من صحبته وإخائه و إيمانه فى حياة النبى ما لم يبلغه عمر ولا علىّ ولا أحد غيرهما من أمسّ المسلمين به صلى الله عليه وسلم صلةً وقربى . فلا جرم كان اتّباعه النبى اتّباعاً صحيحاً صادراً عن إيمان و بينة ؛ إيمان يجعله مطمئنًّا إلى أنه لن يُخطئ ما اتّبع الرسول ، و بيِّنة تجعله يسلك الطريق التى يرى أن الرسول كان لا ريب يسلكها .

أبو بكر يشيع جيش أسامة

سمع الناس مقالة عمر بعد عوده إليهم بالجُرْف يبلّغهم رسالة أبى بكر ، فلم يكن لهم إلا الإذعان لأمر الخليفة طوعاً أو كرهاً . وخرج أبو بكر بعد ذلك حتى جاء العسكر ، فأشخصهم وشيّعهم وهو ماش وأسامة راكب ليزيدهم لإمارة أسامة إذعاناً وتسليما . وكأنما غلب أُسامةَ الحياء أن يرى هذا الشيخ الوقور صاحب رسول الله وخليفته على المسلمين يسير إلى جانبه ، ودابّته من ورائه يقودها عبد الرحمن ابن عوف ، فقال : « ياخليفة رسول الله ، والله لتركبنّ أو لأنزلن » . قال أبو بكر : « والله لا تنزل ووالله لا أركب . وما عليّ أن أغبِّر قدميّ فى سبيل الله ساعة ! » . فلما آن له أن يودِّع الجيش قال لأسامة : « إن رأيت أن تُعينني بعمر فافعَلْ » . فأذِن أُسامة لعمر أن يدع الجيش وأن يرجع مع أبى بكر .

لعمرك ما عسى أن يقول المتذمِّرون بعد هذا الصنيع وقد بايعوا أبا بكر بالأمس لِيَلِيَ أمر المسلمين جليلَه ودقيقَه !. والذين أذعنوا من قبلُ كرها لم يسعهم بعد هذا التصرف الحكيم إلا أن يرضوا أو يتعرّضوا للقالة ويُتَّهموا بالأَثَرة . وكثيراً ما كان للخوف من رأى الغير فينا وحكمه علينا سلطانٌ على تصرُّفاتنا وأعمالنا يعدل سلطان اقتناعنا الذاتى ، و إن اختلفت البواعث وتباينت النيّات .

وصية الصديق لجيش أسامة

وآن لأبى بكر أن يودِّع الجيش ، فوقف فى رجاله خطيباً وقال : « أيها الناس ،

قفوا أُوصِكم بعَشْرٍ فاحفظوها عنى : لا تخونوا ، ولا تغُلُّوا ، ولا تغدِروا ، ولا تمثِّلوا ، ولا تقتلوا طفلا صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقِروا نخلا ولا تحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة . وسوف تمرون بأقوام قد فرّغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسَهم له . وسوف تَقْدَمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئا بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقَوْن أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفِقوهم بالسيف خفقاً . اندفِعوا باسم الله ، أقتاكم الله بالطعن والطاعون » .

وقال لأسامة وهو يوشك أن يتحرك بالجيش : « اصنَعْ ما أمرك به نبىّ الله صلى الله عليه وسلم . إبدأ ببلاد قُضاعةَ ، ثم ائت آبِل ، ولا تقصّرن فى شيء من أمر رسول الله ، ولا تعجَلنَّ لِمَا خَلّفتَ عن عهده » .

مسيرة الجيش إلى البلقاء

وسار الجيش وعاد أبو بكر وعمر بن الخطاب إلى المدينة . سار هذا الجيش وقائده الشابّ على رأسه يقطع البِيد ويتخطى المفاوز فى هذه الأيام الشديدة القيظ من شهر يونية . وبعد عشرين يوماً من مسيرته بلغ البلقاء حيث تقع مُؤتة ، وحيث استُشهد زيد بن حارثة وصاحباه جعفر بن أبى طالب وعبد الله بن رواحة . هناك نزل أُسامة بعسكره فأغار على آبِل ، وبثَّ خيوله فى قبائل قُضاعة ، وقضى على كل من وقف فى وجهه من أعداء الله وأعداء رسوله قضاءً لا يعرف هوادة ولا رحمة . وكان شعار المسلمين وصيحتهم فى الحرب ذلك اليوم : « يامنصور أمِتْ » .

قضاء أسامة على أعداء الله ورسوله

قتل المسلمون أثناء هذه الغزاة ، وأسروا ، وأحرقوا القرى التى قاومتهم ، وغنموا ماشاء الله أن يغنَموا . بذلك انتقم أُسامة لأبيه وللمسلمين فى مؤتة ، وبذلك نفّذ أمر رسول الله أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين ، وأن ينزل على أعداء الله وأعدائه فى عماية الصبح ، وأن يُمعن فيهم قتلا ، وأن

يُحرقهم بالنار . وقد أتم ذلك دِرَاكاً فلم تسبق إلى أعدائه أنباؤه . فلما أتمّه عاد بالجيش مظفّراً إلى المدينة ممتطياً الجواد الذى مات أبوه عليه .

عود أسامة ظافراً إلى المدينة

عاد بالجيش الظافر إلى المدينة ، لم يُغْرِه النصر باقتفاء أثر أعدائه أو باقتحام تخوم الروم والتوغل فى ديارهم . وعاد وقد زادت حداثة سنه فى جلال انتصاره ، وجعلت المهاجرين والأنصار الذين تذمروا من قبل لإمارته يحدثون مفاخرين بحسن بلائه وعظيم إقدامه ، ويرددون مؤمنين قوله صلى الله عليه وسلم : « إنه لخليق للإمارة ، وإن كان أبوه لخليقاً لها » .

ولم يَدُرْ بخاطر أحد من أمراء الجيش الظافر أن يدفع أسامة لاقتفاء أثر عدوه . ذلك أن السياسة التى جرى عليها رسول الله والتى كانت ماثلة فى نفوس المسلمين جميعاً ، كانت تقف عند تأمين التخوم بين العرب والروم ، فلا يحدّث الروم أنفسهم بغزو العرب انتقاماً لليهود أو غير اليهود ممن كانوا يأتمرون بالمسلمين .

وكان ذلك طبيعياً ، إذ كان الروم لا يزال اسمهم يزلزل الشعوب بسعة إمبراطوريتهم ونفوذ سلطانهم ؛ لم يغيّر من ذلك ما كان بينهم وبين العرب من نزاع كانوا فيه أصحاب الكلمة العليا إلى السنوات الأخيرة من حياة النبىّ . ألم يذهب دحْيَة الكلبىّ بكتاب رسول الله إلى هِرَقْل ، وهرقل فى أوج نصره ، فى السنة السابعة من الهجرة ، أى قبل وفاة النبى بسنوات ثلاث ، فرأى من قوة الروم وبأسهم ما رأى ! أو لم يذهب اليهود فى هذه السنة السابعة إلى فلسطين بعد هزيمتهم فى خَيْبَر وفى فَدَك وتيماء ، وقلوبهم كلها الحفيظة على محمد وعلى من اتّبعه ، يأتمرون لتأليب الروم عليهم كيما يقاتلوهم ويظفروا بهم كما قاتلوا الفرس وظفروا بها ! لاجرم إذن أن يقف المسلمون من سياستهم عند حماية تخومهم من اعتداء الروم ، وأن يكُرّ أسامة ، بعد أن تم له النصر على أعدائه ، راجعاً إلى المدينة ليقف إلى جانب أبى بكر والمسلمون معه ، دون أن يدور غزو الروم بخاطره أو خواطرهم ، ودون أن يتوقع

أحد منهم أن هذا الغزو سيبدأ بعد سنتين اثنتين ، يَبْدَؤُه أبو بكر بحكم الحوادث ثم يُتِمّه خلفاؤه ، فيكون فيه القضاء على هذه الإمبراطورية الروميّة التى ظلت قروناً مرهوبة الجانب تعنو لكلمتها الجباه ، وتتصدّع من هول بأسها العروش .

أبو بكر يتلقى أسامة بظاهر المدينة

عاد أُسامة إذن بالجيش الظافر ، و بلغ ظاهر المدينة، فتلقّاه أبو بكر ، وكان قد خرج فى جماعة من كبار المهاجرين والأنصار للقائه وكلهم فرح وتهلل ؛ وتلقّاه أهل المدينة الذين خفُّوا فى أثر أبى بكر وأصحابه بصيحات السرور والإعجاب والتقدير لبسالته و بسالة جيشه . ودخل أسامة المدينة تحيط به هالة من فخار النصر ، فقصد من فوره إلى المسجد حيث صلّى شكراً لله على ما أنعم عليه وعلى المسلمين . وكانت عودة الجيش إلى المدينة بعد أربعين، وقبل سبعين ، يوماً من مغادرته إيّاها.

يحاول بعض المستشرقين أن يهوّنوا من أمر هذه الغزوة وأن يصغّروا من شأنها ، مع ما كان من اغتباط المسلمين بها و إكبارهم للذين تم لهم النصر فيها . يقول المستشرق « فَكَّا » محرر فصل أسامة فى دائرة المعارف الإسلامية : « وقد بعث انتصار أسامة البِشْرَ فى نفوس أهل المدينة بعد أن أحزنتهم حروب الرِّدَّة ، وأصبح لانتصاره من الخطر ما لا يتفق مع قيمته الحقة ، بل عُدّ فيما بعد فاتحة للحملة التى وجِّهت لغزو الشام» . وصحيح أن هذه الغزوة ليست جسيمة بالقياس إلى ما نعرف من غزوات اليوم ، وليست جسيمة بالقياس إلى بعض الغزوات التى تمّتْ فى ذلك الحين . فقد اكتفى أُسامة منها بأن دهم القبائل التى فجأها وأن غنِم منها دون أن يلقَى جيش الروم . لكن الأمر الذى لا ريب فيه أنها كانت بعيدة الأثر فى حياة المسلمين ، وفى حياة العرب الذين فكّروا فى الثورة بهم ، وفى حياة الروم الذين تمتد بلادهم على حدودهم . قال أعداؤهم من العرب الذين تسامعوا بهذه الغزوة : « لو لم يكن للقوم قوة ما أرسلوا جيوشهم تُغير على مَنْ بَعُد عنهم من القبائل القوية » . وانزعج هِرَقْل حين بلغته أنباء هذه الغزوة ،فبعث جيشاً قوياً عسكر بالبلقاء. وتلك

أثر هذه الغزوة فى العرب وفى الروم

الحجة البالغة على أن الروم والعرب جميعاً حسبوا حساب المسلمين بعد هذه الغزاة التى جعلت عرب الشمال ، فيما خلا دُومة الجَنْدَل ، لايلحون فى التحرش بالمدينة والانتقاض عليها .

على أن الأمر لم يكن كذلك فيما سوى الشمال من أنحاء شبه الجزيرة . رأيت من قبل أن قبائل فى سائر أنحائها نزعت إلى العصيان فى السنوات الأخيرة من حياة النبىّ ، ورأيت أن جماعة من أهل هذه القبائل ادّعَوُا النبوّة . ولولا الفزع الذى كان يتولّى هذه القبائل ويتولّى المتنبئين فيها بسبب ما كان النبى يأخذهم به من حزم وما كان المسلمون يُبدونه من بأس وقوة إيمان ، إذن لسرت روح الانتقاض فى أنحاء كثيرة . فلما اختار محمد جوار ربه ارتدّت العرب إمّا عامةً و إما خاصةً فى كل قبيلة ، ونجم النفاق ، واشرأبت اليهود والنصارى ، واضطرب المسلمون لفقد نبيهم ولقلتهم وكثرة عدوّهم . فلم يكن بدٌّ من سياسة حكيمة حازمة تردّ الأمر إلى نصابه ، وتنصر دين الله فى إبّان نشأته .

ردة العرب إما عامة وإما خاصة

وهذا ما صنع أبو بكر حين جرّد أبطال المسلمين لحروب الردّة ، وللقضاء على الثائرين بدين الله و بخليفة رسوله .